قراءة في عيون الزيتون

لايمثل هدوء المرأة في طباعها الاستكانة والرضوخ لانونثها والاستسلام لسطوة الجسد وفسلجته، ولا يعني جمال الأنثى في كل الأحوال أنها:» تلك اللقمة السائغة بفم الرجل» متى شاء يمضغها وإن أراد يرميها منتصف الطريق، خصوصا إذا ما التفتت المرأة لقواها الفكرية وطورت ذاتها بذاتها من خلال استكناه حقيقة تركيبة المجتمع والكشف عن دهاليز الظلمة فيه، ومدى التزامه بالأبعاد العرفية انطلاقا من نافذة الدين والتعامل مع الأنثى بمصطلحات تحولها إلى كائن من الدرجة الثانية في كل شيء، هذا الدرس البليغ تلمسته في بوح «سماح الجمال «من خلال الصرخات الواعية التي شكلت صعقات «كهرواجتماعية» اذا صح القول لما تختزنه ذهنية الرجل العربي عن نفسه بكونه الفارس الذي يجب أن تسجد له المرأة بكل الاحوال لا لشيء سوى لانه رجل وحسب، هذه الرؤية التي تسببت في تخلف العقل الأنثوي وتراجعه وتسليمه لما يؤمن به المجتمع ظاهرا فقط، ويعمل بعكسه في الواقع، وهذا ما يؤيد زعمي أننا نعيش عصر زندقة

نظهر عكس ما نبطن ولنعترف بأن مجتمعنا العربي مازالت الخرافة تهيمن عليه ومازال العرف الأخرق يطوح به .

الروائية سماح الجمال ومن خلال رواية «شجرة اللوز «قالت ما قالته من قبلها أخريات ولكن ليس بهذا الكشف المجهري لدهاليز وضاعة ودونية أعراف تمارس ضد المرأة باسم الدين والدين منها براء، وهذا ما نكتشفه من خلال رحلة تقصي في السرد الذكي الذي جعل الرواية تتميز في جوانب مختلفة عن غيرها رغم أنها لا تتعدى مائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير وكأن الجمال تقول في ظل انهماك الإنسان في البحث عن لقمة العيش ما عاد قادرا على المطاولة في القراءة علينا أن نريحه باقتضاب الفكرة وتكثيفها وهذا يحسب للروائية في زمن قَلّ فيه القراء.

استهلت الرواية بمفردة «الظلام» لفظ له دلالاته المختلفة ولكن الثابت أنه يحيط بالارض من كل جوانبها والمفردة متضادة مع النور، فالنور استثناء من القاعدة الأصلية، وهي الظلمة التامة. وكما أنه لا ضياء يستمر للأبد، كذا الحياة هي قبس من نور أو هبة مقيّدة بتوقيت محدد. فلا نور يستمر للأبد ولا حياة خالد لأحد، كلها ومضات أو استثناءات ترد على قواعد مستقرة، كشهب تلمع في سماء مظلمة تضيء للحظات لكنها إضاءة المحتضر . ثم تعود الأمور سيرتها الأولى، ظلام دائم برودة مطلقة وكأن لم يكن ثمة حياة من قبل.

فهل كانت الجمال تقصدت من الظلام إحدى مترادفاته المعنوية وهي تستهدف «شيوع الظلم وغياب العدل على الأرض؟» تقول: «**كان الظلام يدق بظلاله على المكان** «ص6، **من هذا اللفظ فتحت الروائية نوافذ صغيرة نحو الضوء بل تنحصر هذه النوافذ لتمثل شقوقا دقيقة في جدار الظلام، وهو توافق مع القاعدة القائلة بأن السيادة للظلام والاستثناء هو النور، وبمعنى آخر الحياة مليئة بالقسوة والفرح ومضة أو أدنى من ذلك سرعان ما تتلاشى** .

ويبدو اليأس في نفس بطلة الرواية منذ الوهلة الأولى فالمكان غرفة ظلماء والتعبير مجازي عن «ضيق الحياة وقسوتها وسيادة الرديء «أما الزمن فيستدعيه الحدث الروائي وفق امتدادات متصلة مع بعضها ومتحركة نحو فضاءات مفتوحة.

ونعود للرواية في بداياتها لنجد أن هناك حرص كبير لدى الراوية على محاولة بث أفكارها المؤسسة على قاعدة أخلاقية إنسانية مشتركة ممزوجة بمساحة من التحرر الفكري الذي يجب أن يتسم به أي روائي وألا ستظل لديه أماكن مضببة لايمكن ولوجها وبالتالي ستشكل مواطن ضعف تلقي بكاهلها على السرد برمته ويتحول إلى مجرد «حكي» لايثير أما ما تقوله الجمال فهو مختلف تماما جرأة وحرفية ووضوحا فقد نجحت في كسب المتلقي لجانبها تقول: «**الظلام الحالك يحيط**

بها من كل جانب، لايترك شقا يخرج منه بصيص للنور كي ترى، لا تستطيع أن تخرج من غياهب الظلمات، صرخة مشروخة تهدم فوق رأسها أعمدة البيت ليخرج ويبتلعها ولا يترك منها شيئا، وتصبح روحا خاوية تطوف فوق جثمانها ببرود» ص7.

رغم بساطة الجملة السردية إلا أنها تحمل قيمة معنوية علية تشعر المتلقي بالانتماء للجملة لفظا ومعنى وهذا الأسلوب يتطلب جهدا ووعيا وقاموسا لفظيا يوفر البدائل للفظ الواحد من مترادفات المفردة .

(لا يترك شقا يخرج منه بصيص للنور) و(أن تخرج من غياهب الظلمات) و(تهدم فوق رأسها أعمدة البيت) و(تصبح روحا خاوية تطوف فوق جثمانها ببرود) .

هذه الجمل يسيرة على التلقي غائرة في التأويلات ولنضرب مثلا على ذلك (لا يترك شقا ...) هذا يعني أن الأجواء كلها من حولها حالكة الظلام تسعى لبصيص نور وهي تماما لا تقصد المعنى القريب بالنسبة للقاري الحاذق، إذ يحيلنا هذا القول لماهية الجدار هل هو الجدار الملموس أم هو شيء آخر، واعتقد أنها تقصد العرف الذي يسد على الأنثى أي أمل في القادم فهو ظلمة تلتف كالأفعى حول عنق المرأة ولا يسمح بأي فضاء للحرية، وبهذا التأويل أوصلت الراوية رسالتها للمتلقي من خلال نضوج الفكرة . وهكذا بقية الجمل أعلاه كلها تحتمل غير المعنى القريب .

وفي مجال التشبيه الذي أصرت الروائية على استعماله وهو أحد أركان البلاغة العربية والدال على سعة أفق الكاتب في أي غرض كتب هناك من الصور ما تستحق التوقف عندها ودراستها وكأن الروائية تنسج نصا نثريا من ارقي ما يكون تقول:

«تجاهلت موضوع الكابوس، أشعلت سيجارتها الوحيدة المتبقية، تنفثها ببطء وسعادة كمن يودع حبيبا ولن يلتقه، يحررها هذا الإحساس، إحساس القدرة على السعادة دون الآخر» ص9 .

إذا كان الفائض اللغوي في الشعر يشكل مثلبة وعيبا فإن الرواية كجنس من أجناس الأدب كذلك الفائض في اللغة يثقل السرد ويشكل دافعا للملل من المتابعة عند المتلقي، ولو تفحصنا النص أعلاه لا نجد حرفا زيادة عن الحاجة وكأن الجمال قد وزنت ألفاظها بميزان الذوق ووضعت كل مفردة محلها الذي تستحقه لصناعة صورتها الجميلة التي تفوق الواقع بكثير.

والصور البلاغية في المتن كثيرة ومتعددة توحي للمتلقي أن الروائية تتمتع بحس مرهف ومخيال محلق في الماوراء وهذه صورة أخرى تؤكد سعة افق الروائية تقول:

«خمرية بـ دلال وشعري قطعة من الليل، متموج كما ينبغي، وعيوني حالكة السواد صاخبة، لست طويلة ولا تستطيع أن تنعتني بالقصيرة،

يخجلني الثناء وكلمات الغزل وتشتعل وجناتي بحمرة تزيدني جمالا وانوثة، ...» ص24.

إنّ اللغة تحيل النص الروائي إلى نص لغوي إبداعي يحتمل المنطق السردي من وجه البنية السردية، والجمالية في مقاربته للنص الروائي وخصوصية الحركة السردية في سياق تطور مكوناته التي يدور حولها محور الخطاب الروائي واللغوي، وإذ يخضع النصُّ الروائي إلى آليات السرد من منطلق أن السياقات السردية تتعالق حولها نصوص مُهجنة للبنية المحورية للخطاب السردي، هذه الجمل التصويرية المعبرة عن إحساس الأنثى بقدراتها الجمالية والروحية ترجمة لصورة المرأة القوية القادرة على خوض غمار تجارب الحياة دون الوصاية المحددة لدورها والمهمشة لتلك القدرات من قبل الرجل، الجميلة المؤمنة بما وهبها الله من خصال تستطيع من خلالها العيش بأمن وسلام وتحافظ على ما لديها فهي تواصل القول» كأنثى احترم جسدي تماما واعرف كيف أحافظ عليه وأدلله...» ص25.

إن ممازجة اللفظ الفصيح مع العامية أمر خطير فيما لو أهمل الروائي قواعد تداخل اللغة بالدارجة وما جاءت به الجمال يذكرني بأسلوب الطهطاوي الذي لم يتخلى عن اللهجة المحلية الدارجة والتي اكسبها جمالية ورسم من خلالها لوحة مليحة معبرة عن الجمال في

كل ما جاء به والطهطاوي صاحب مدرسة في ذلك ولا ريب، بل وجه الدعوى لذلك.

وتوغل الرواية في العرف الاجتماعي داعية وبكل صدق الى النظر في المتخلف منها ووجهت الروائية رسائل كثيرة للمرأة بأن تكون أكثر قوة في مشاعرها ولنتابع هذا الحوار تقول:

«اليوم اتبعت قرارا وسأتبعه بقرارات قد تعصف بما تبقى لي من مشاعر دونك، سأبتعد عنك، نعم لا وقت لدي أكثر من ذلك هو قرار بنكهة الاشتياق ...» ص80

تنسحب المرأة من حياة الرجل إذا شعرت بما يهدد كرامتها ويمسخ شخصيتها ويذيبها في شخصيته حتى تتهدم أركانها ككيان مستقل، ولا أقصد كل النساء بل الواعية منهن والتي تفهم العلاقة مع الرجل تشاركية وليس الغائية، ومتى شعرت بالإلغاء انسحبت على الرغم من وجود المشاعر بينهما، وتنسحب المرأة لأسباب أخرى لكن الشعور بالالغائية هو السبب الأول المفسر لذلك التخلي الكلي والتضحية .

ما شكلته «شجرة اللوز» للروائية سماح الجمال كرواية موضوعية استقت مادتها من الواقع العربي المعاش صرخة بوجه الأعراف البالية والعادات الاجتماعية التي كلما تقدم العالم عادت الى الواجهة بقوة بدعوى الحفاظ على الموروث الذي يطبق انتقائيا من الرجل مؤكدا

على سيادة الذكورية في عالمنا الضاج بالمتناقضات والذي يحسب فيه المتخلف من العرب أن شرفه يكمن في المناطق المحرمة للمرأة في الوقت الذي يرتكب فيه كل الموبقات المتعارف عليها «يسرق، يقتل، يشرع خلافا للدين، يزني ...» كل ذلك لايعده شرفا فقط الحجر على الأنثى هو الشرف الرفيع لذا لن يصلح العرب والمرأة تعامل «مواطن يستوجب الوصاية عليه» وشجرة اللوز في متونها فضحت الكثير من الممارسات الاجتماعية الخاطئة في الوقت ذاته وجهت ونصحت ودلت على الحلول الناجعة وهذا كله يحسب لثقافة ووعي وإلمام الروائية الجمال بما يحيط بها، ولا أدعي قراءة تفصيلية للرواية التي لو طلب مني تقيمها لقلت وبلا ادنى شك أنها تقف في الصف الاول من روايات هذا العام بكل تفصيلاتها وأركانها